٢ ـ السلم العالمية حلم الأبد

للأستاذ توحيد السلحدار بك

يقول الدكتور الأهواني : « الخطوات التي يخطوها العالم في سبيل التطور والوحدة خطوات سريعة جداً (كذا) ، هي التي تجعلنا نقول بأن السلم قريبة الآن . ونحن نؤيد هذا القول بشواهد في التاريخ ، معتمدين على النظر إلى تطور الإنسانية خلال العصور الطويلة »

إن مذاهب التاريخ وأنواعه وكتبه كثيرة . فعلى أيها اعتمد الدكتور يا ترى ؟ يحسن ، على كل حال ، تقديم كلمة في التاريخ بوجه عام ، قبل النظر في « الشواهد » وفي « تطور الإنسانية » مما اعتمد عليه الدكتور

إن كل قرن يكتب في التاريخ لإحيائه وتجديده . والتواريخ المكتوبة على أحدث وجهات النظر تعتمد على المنطق والفلسفة كي تُبين حقيقةً ذات شأن تؤخذ ، بالنظرة الشاملة ، من مشهد الحوادث الإنسانية . وهذا هو التاريخ السامي إلى المرتبة العلمية . على أن تطبيق هذه الطريقة يُعرِّض المؤرخ لتعميمات واهية الأساس ، واستنتاجات فطيرة ، وإطلاق في الكلام . ولا يقدر سوى القليلين على ترجيح كفة الأمانة ، كل الترجيح ، في التحليل والحكم ؛ وترجيح الضمير والعلم على هوى الآراء المجملة ، وجواذب الحاضر السطحية ، والتباس الشهادات الناقص تحقيقها . ومما يجب التنبّه له ، في هذا الباب ، عادة التوفيق بين الحوادث المنقضية وبين همّ المؤرخ من جهة تأليفه وفنه ، أو بينها وبين أذواق عصر من العصور ووجدانيات أهله ، ومصالحهم أو بعض المصالح الحزبية . والزمان الحاضر عصر تقدم ، لكن يجب الاعتراف بأن الذين بالغوا في الفروض المخاطر بها كثيرون

وهذا ويلز يقول في مقدمة كتابه : « ليس يمكن أن يوجد سلم ولا نجاح مشتركان بغير أساس مشترك من الفكر التاريخية » ؛ وتاريخه مكتوب في سبيل هذا الرأي . بيّن في كتابه مذهب جيبُّون[1] في تاريخ الرومان ، ثم قال : « حاولنا أن نعرض الحوادث على صورة أخرى » . وقد ذهب الأستاذ جيُّو[1] ، مترجم الكتاب إلى الفرنسية ، في مقدمة ترجمته ، إلى أن هذا التاريخ « هو ، قبل كل شيء ، صنيع كاتب وسّع دائرة نظره ، فجعل الأمم والمدنيات في مكان الأفراد من كتب الخيال : ومن هنا وقعه التمثيلي في النفس . إن هذا التاريخ — وإن تأسس على أدلة قوية — ليُنشئ بقدر ما يُحدث ... هو قصص يصف حادثة لم تكن منتظرة ، بطالها الإنسان ؛ والذين اعتبروا ، حتى اليوم ، من رجال التاريخ ليسوا فيها سوى المخرجين ؛ وما الإمبراطوريات إلا مناظرها ؛... وسيمة البطولة عند ويلز أن يخدم الإنسان ، ويجعل نفسه منفِّذ الأقدار الذي يحتم على الإنسانية بالتدريج ، في جميع المعتركات ، اتحاداً في الفكر وفي الإرادة » . ولم يوافق على وجهة نظر ويلز في كل الأحوال مع موافقتهم في بعضها : جينيبير[2] ، الأستاذ بالسربون ؛ ودِرْه[3] ، الأستاذ بجامعة رِنْ Rennes ؛ ودُتّ[4] ، أستاذ الأدب فيها ؛ وبُول[5] ، الأستاذ في المُزيُم ، أي حديقة النبات بباريس ؛ ودُسُّو[6] ، الأستاذ بمدرسة متحف اللوفر ، وأضرابهم ممن ساعدوا المترجم

طال هذا الاستطراد المتعلق بالتاريخ . لكن عذره أن ملاحظة ما فيه تفيد في تقدير « شواهد » الدكتور التاريخية ونظره إلى « تطور الإنسانية »

فهو يقول إن الجماعات انتقلت ، بمقتضى الرق والعمران ، من قبائل متناثرة ومدن صغيرة إلى دول وشعوب كبيرة ، « وكلما اتسعت الدولة زالت الفوارق في اللغة ، والتقاليد ، والعادات ، والفكر ، والدين »

أما التاريخ فيقول إن الدول تتسع ثم تضيق ، كما اتسعت الدولة العثمانية ثم ضاقت تركيا ، من غير أن تزول تلك الفوارق ؛ وكذلك الإمبراطورية النمسوية ، وغيرها . واللغات وفروعها عديدة ، والشعوب المختلفة لا تعرف غير لغاتها ، والراقية تخلّص لغاتها مما يهدد كيانها وإن تعلمت بعض اللغات الأجنبية ؛

(١) Edouard Gugot الأستاذ في السربون

(*) Guiqueberf .

(٣) Déyrez .

(٤) Dottin .

(٥) Boule .

(٦) Dussaud

(١) Edouad Gebbon المؤرخ الانجليزي المشهور ، صاحب « تاريخ هبوط الامبراطورية الرومانية وسقوطها » .

واليابان التي يعرف بعض أهلها اللغة الإنجليزية ، مثلا ، تحافظ على اليابانية ولا تهمل ثقافتها القومية ، والروسيا اتسعت وليست اللغات العديدة فيها بسبيل الوحدة . ومصر التي اتسعت وضاقت ، وتدانت أرجاؤها ، وكثرت فيها المواصلات والمخالطات ، لما تزل بها الفوارق على امتداد القرون بين التقاليد والعادات ؛ بله ظواهر الأمور في طبقة محصورة من الآخذين عن الفرنسيين أو الإنجليز أو غيرهم ، بل إن ما أخذوا يزيد الفوارق ولا ينتظر أن يعم . وقد تشعبت الأديان الوثنية والكتابية الأصلية ، ولم تتوحد أصولها ولا مذاهبها في دولة ولا أمة ؛ ولم ينس التاريخ ما وقع بين الكاثوليك والبروتستان ؛ والذي أصاب اليهود ، في دولة واسعة كألمانيا قد حدث في هذا الزمان . فالقول بزوال هذه الفوارق كلما اتسعت الدولة يشعر بعجلة في التحقيق ، والاستنتاج ، والتعميم ، وإطلاق الكلام

ويقول الدكتور : ظهر عامل جديد « سيقلب كيان الإنسانية كلها » ، و « هو سرعة المواصلات البرية ، والبحرية والجوية »

وويلز يقول ، في مقدمة كتابه : « أدنت البشر بعضهم من بعض لخيرهم أو لشرهم وسائل مواصلات أسرع » . ويقول في كتابه : « لما كان جيل ، من نحو قرن ونصف ، يهيئ الجمعية اللطيفة المهذبة في ذلك العصر بخاتمة طور الثورات السياسية والاجتماعية الكبرى ، كان يهمل أكثر من أمارة تبدو لنا اليوم ، في ضوء الحوادث ، منبئة برجات رهيبة وانفساخات وانفكاكات شديدة[1] ... كانت الإمبراطورية البريطانية ضمان سلامة وأمن للعالم ... إن تقدم الملاحة وبناء السفن ، بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، أمكن من سلام بريطاني مقبول عند الجميع ، إن نمو الملاحة الجوية والمواصلات البرية قد يرد هذا السلام أمراً تقل الرغبة فيه بقدر ما يكون غير ثابت آمن[2] » . ويقول أيضاً : إن نظام الدول العظمى كان بأعلى درجاته « في قريب من الوقت الذي بدأت تظهر فيه القوى الفاتكة التي بلغت مبلغاً يجعلنا نتساءل قلقين في الساعة الحاضرة (حول ١٩٣٠) : هل ستجلب خراب عالمنا بأسره ؟ »[3]

ذلك ما يقول واصف « سير الإنسانية العظيم نحو وحدة عالمية » . وبواكير الأحوال تدل على أن انقلاب « كيان الإنسانية » سيكون شراً لها ، لا خيراً ، لأن الغريزة الأساسية الدافعة إلى الكفاح في الحياة والفوارق الطبيعية بين الأفراد والجماعات لم تتغير ولن تتغير

ويقول الدكتور : ستخطو الإنسانية خطوات أخر « يخيل إلينا أنها قريبة الوقوع وهي : وحدة اللغة ، ووحدة التقاليد ، ووحدة الزي ، ووحدة الأساليب في شتى فروع الحياة » . ومن آيات هذا الاتجاه « أن تركيا اصطنعت الكتابة بالحروف اللاتينية . . . وفي مصر من يريد مثل ذلك » ؛ ومنها « محاولة اختراع لغة عالمية سموها ... اسبرانتو »

وهذه « وحدات » كثيرة أو حجج كأنها واردة لمجرد الاحتجاج ، إذ ليس يخفى على الدكتور أن سكان الأرض ١٨٢١ مليون ، هم ستة أجناس أصلية فروعها أكثر من خمسين ؛ وأن لغاتهم ومشتقاتها ألف على التقريب ، أصولها الأساسية أحد عشر ، ويتفاهم بها الهمجي والمثقف ومن بينهما في دركات ودرجات لا تحصى ؛ وأن اللغة صور لما في النفس من وجدانيات وأفكار . فكيف تنشأ وحدة النفس والمدركات والمدركات فيها حتى تتحقق وحدة اللغة في جميع العالمين ، مع ما بينهم من تفاوت طبيعي من الجهتين الحسية والمعنوية ، ومن اختلاف الموطن والمعيشة والموروث المستقر في أعماق الجسم والنفس ، والمكتسب المتنوع تنوع عوامل التطور الباطنية والخارجية . فما « وحدة الأساليب في شتى فروع الحياة » إلا شيء خيالي . وإن جاز أن يتمنى هذه الوحدة وأمثالها آخذ بالظواهر الجزئية القريبة ، في عجلة ومبالغة ، فالنهج إلى الحقائق البشرية هو النظر في الأسباب القطرية والعلل الجوهرية . أما الإسبرانتو فلغة اصطلاحية وضعها زامنهوف Zamenhof ، الطبيب ، اللغوي ، الروسي ، سنة ١٨٨٧ ، تسهيلاً للعلاقات بين الأمم ؛ والمقاطع الأصلية في هذه اللغة مأخوذة من أكثر المقاطع تداولاً في أكثر اللغات شيوعاً ؛ وهي تكتب طبقاً للصوت في النطق ؛ ونحوها بسيط محصور في ست عشرة قاعدة ؛ ومع ذلك ، فكم من الخلق ومن القائمين بشؤون الأمم استعملوا هذه اللغة بل عرفوها في السبع والخمسين السنة الماضية ؟ كلا ، إن حجة الإسبرانتو هي حجة على رأي المحتج بها وليست له . وأما الترك الجادون في إحياء قوميتهم ، بإحياء تاريخهم ولغتهم ، فلم يصطنعوا الكتابة بالحروف اللاتينية ليهملوا التركية التي يتوخون تصفيتها

(١) الصفحة ٤٢٢ من كتابه .
(٢) الصفحة ٥٠٦ منه .
(٣) الصفحة ٤١٦ منه .

من الدخيل فيها . ومَن أراد من المصريين استعمال هذه الحروف لم يقصد سوى المحافظة على اللغة العربية الصحيحة ، أصاب أو لم يصب فى اقتراحه . أما وحدة الزى ، على فرض أنها قد تتحقق ، فإنها تظل شيئاً سطحياً ليس يقوى على تغيير ما هو خاضع للسنن الطبيعية فى القلوب والعقول . ولو تحققت هذه الوحدات جميعاً لأصبح الناس كالآلات التى تخرج من المصنع على غرار واحد ، ولا بد من استحالة الفطرة البشرية قبل أن تحصل هذه الوحدة

تبين ، فيما تقدم من البحث ، ضعف « القوى » و « الأبلغ » من أدلة الدكتور على أن السلام « قريب الأمد » . وبقى أنه خرج منها بقوله : « من العوامل القوية فى منع الحروب وتحقيق السلام — بعد توحيد العالم على النحو الذى وصفنا وقوعه فى المستقبل » :

أولاً : إن « العالم يسير الآن نحو خطة جديدة يرى بها إلى نزع السلاح »

لكن كليمنصو ، وهو من علمتَ ، يعترض إذ يقول : « الأخيرَ هوأن تنظر ملهاة « نزع الأسلحة » الزائف فى نفس الساعة التى تتسع فيها صناعة هذه الأسلحة اتساعاً جنونياً »[1]

وقال لُوى دُه لُنيه[2] ، عضو مجمع العلوم الفرنسى ، بشأن ما تلا الحرب الماضية من المؤتمرات : « منذ مدة ، راجت مؤقتاً مؤتمرات السلام والأحلاف المقدسة . وهذه حال دورية تمتد عادة بقدر بقاء الذكرى الأليمة من حرب أخيرة : افرضه جيلاً . وبما أن من مميزات زماننا عقلية فوّيرة تتخيل أنها اكتشفت العالم ، يميل الناس اليوم بوجه عام إلى التسليم بأن هذه الحال نهائية . أرجو أن يشاء الله ! »[3] وقد صدق : إذ نشبت الحرب الحاضرة ، وهى أشد إيلاماً من الماضية ، ولذا بدأ الناس من الآن ينتظرون نزع السلاح ويسلّمون بإمكان سلم دائمة

ثانياً : إن العالم الآن « يجرى فى التعليم على بث روح السلم واعتناق فلسفة السلام »

ثالثاً : إن الواقع هو « انتشار التعليم بين سواد الناس ، وما يتبع ذلك من رقى عقلى ، ونزوع إلى تغليب الحكمة على الشهوة ، وحل المشكلات بالعقل لا بالقوة . وكلما ارتفعت عقليات الأفراد صعب قيادهم قياداً أعمى لمصلحة ذوى المطامع »

فهل يجب إذن أن نعتقد أن أفراد الشعب الألمانى ، مثلاً ، لم ينتشر التعليم فيهم ، وأن عقليتهم منحطة ، ولذا أثر أصحاب المطامع فى عقولهم ونفوسهم حتى انقادوا إلى هذه الحرب انقياداً أعمى ؟ أو أن هؤلاء الأفراد وزعماءهم سوف يهذبون على « فلسفة السلام » حتى ينسوا أحقادهم القديمة والحديثة على أعدائهم ، ويتغلبوا على غرائزهم وشهواتهم فلا يوجد بعد ذلك فيهم أحد يحاول دفعهم إلى حرب ، ولا ينقادون انقياداً أعمى ولا بصيراً ؟ ومن الذى سيتولى تهذيبهم بهذه الفلسفة ؟ هم ، من تلقاء أنفسهم ، أم غيرهم ؟ وهل أفلحت الدول التى اقتسمت بولونيا منذ أواخر القرن الثامن عشر فى عقليتها ونفسيتها ونزعتها الوطنية إلى الاستقلال ، بالثورة وغيرها من الوسائل ؟ وهل تصدق جميع الدول فى تغذية شعوبها وتهذيبها بفلسفة السلام النظرية ؟ وأيها يبدأ مخاطراً بهذا التهذيب ؟ وما يكون الحامل على هذه المخاطرة ؟ أهو خيفة رزايا الحرب الحديثة ، أم مثل أعلى مهلك ، أم مقتضيات الاقتصاد وهو الذى يسوق إلى الحرب ؟ هذه أسئلة لا نهاية لأمثالها . وقد يغنى عن أجوبتها استشهاد طائفة من العلماء وكبار الكتاب :

يقول له دَنتيك : « يبدو لى أن الحروب بين الأمم لا مناص منها ... وحين لا توجد حرب أهلية يتباغض المواطنون ويتحاسدون . وهذه الحرب الأهلية الكامنة أليست أمقت الحروب جميعاً ؟ وإن تحقق حلم أنصار السلام كان ذلك نهاية الإنسانية فى أجل قريب ... إن حلمهم يعبر عنه بجمل كريهة جداً ومؤثرة جداً : يقولون إن الإنسان المتخلّص من هموم الحرب يتمم صنيع العلم العظيم ... لا أحد يحب العلم أكثر منى حبى إياه ، لكن لا أحد أيضاً يلاحظ — بأكثر وضوح من ملاحظتى — عجز العلم عن تغيير الإنسان[1] »

ويقول ويلز : « كل ما يفعل الأفراد والأمم هو نتيجة من البواعث الغريزية المؤثرة تأثيراً عكسيًّا فى الأفكار التى نفثتها المحادثة والكتب والصحف ودروس المعلمين فى عقل الشعوب . والفرق بين إنسان اليوم وإنسان كرمنيون[2] فرق ضعيف

(١) بالصفحة ٤٤٧ فى الجزء الثانى من كتابه (فى مساء الفكر) . Louis de Launey .

(١) الصفحة ٧٠ من كتابه : « نهاية عالم والعالم الجديد » المطبوع فى كندا .

La Fin d' un Monade elle Monde Nouveau. — Editiod Zallandier.

(١) الصفحتان ٢٩٢ و ٢٩٣ من كتابه « الأنانية هى الاساس الوحيد لكل جمعية » .

(٢) (Cro — Magnon) : غار قريب محطة له إيز (Les Eyzies) على الزير (Vézère) ، ساعدة نهر الدردنى (Dordogne) فى جنوب فرنسا الغربى ووجدوا فى هذا الغار جمجمة إنسان من العهد السابق للتاريخ

كل الضعف : إن الفرق الأساسى هو فى سعته ونوع الحصيلة العقلية التى تكونت على مر خمسمائة وستمائة القرن الفاصلة بين الأول والثانى[١] »

ويقول كليمنصو : « إن الانفعال هو الذى يدفعنا إلى الفعل ، وليس القياس (يعنى ليس العقل والفكر) ... أليس الذى يفضى بنا إلى أعمال الحياة هو تتابع حركات انفعالية ، تحدث عن صواب أو خطأ ، ثم يتقدم العقل بعد ذلك لتبرير هذه الأعمال ؟[٢] »

ويقول جستاف له بون ، أو ماكس نُرْدو : « العقل ينشىء العلم ، والوجدانيات تسير بالتاريخ[٣] » . ويقول لُه دنْتك أيضاً : « أن توجد هو أن تكافح ، وأن تحيى هو أن تغلب[٤] » و « الأنانية هى الإس الوحيد لكل جمعية[٥] »

رابعاً : « إن تحقيق المساواة لجميع سكان العالم فى الحياة المادية ، وهو ما يقضي به التطور الذى نشهد آثاره ، كفيل بمنع الحرب وإقرار السلام »

والثابت أن المساواة ، مادية كانت أو معنوية ، مستحيلة فى البشر لاختلافهم وتفاوتهم تفاوتاً طبيعياً ، جسمياً ونفسياً على ما ذكر آنفاً ، فليست إلا خيالاً وخرافة . ومفهوم المساواة التى أعلنتها الثورة الفرنسية — مثلاً — غير معناها فى العقول العامية ومن يظن أن المساواة المزعومة التى تشمل البشر سوف توجد يكون واهماً . وأكبر منه وهماً من يظن أنها ستعم الأرض قاطبة فى مستقبل قريب

يقول دُه لُنى أيضاً : « إن النظام المنعوت بالرأسمالية أخذ فى التهدم لينتهى ، من طريق الدولة الاشتراكية إلى الشيوعية والعبودية ... وتلك قفزة مخيفة إلى المجهول[٦] »

وأخيراً ، يقول كليمنصو أيضاً : « إن جَدّاً أعمي يعلّق المستقبل ، ولا يستطيع العقل التجريبى أن يعد بشىء وراء الرجاء وهذه خسارة يتحملها[١] » و « نحن — على الخير والشر — تحت سيطرة سنن لا تلين . فهل من المؤكد أن عندنا ما نتعاتب فيه ؟ ألا يكون أعلى المقدور لنا أن نقتتل ونتحاب فى آن ؟ إننا نخفف من فظاعة الكفاح بفترات احترام ، حتى بتوادّ بين الأسر الحية ، أليس فى ذلك مشابهة قاسية لما نسميه بسلامة طوية عند بنى جنسنا سلام الإنسانية ؟ بلى . إن هذا السلام الذى فى وسعنا أن نهديه إليكم نرغب فيه ونعظ به الناس وصداه يرن فى معابدنا ، فانظروا ما صنعنا به ؛ إن الحرب لا تزال قريبة جداً من حالنا الطبيعية ، والسلام لا يزال فى أكثر الأحيان نظاماً للقسوة ؛ وأنتم أنفسكم ، يا من تشكون بحق ، لا يُبقى بعضكم على بعض ؛ وارتفاع طاقتنا يجعلنا جميعاً على حال — سارة أو سيئة — نبيد فيها كل ما يقع تحت سلطاننا[٢] »

مَن يدرى درس أو لم يدرس علمى النفس والاجتماع كل أولئك الشهود الذين ورد شىء من كلامهم فى هذا المقال . لكن إذا كان لمعرفتهم قيمة ، فلا غرو أن يقول قائل : إن منع الحرب حلم الأبد وبوده لو يكون قريب الأمد . والحق أن السلم العالمية أمنية مثالية ، حتى إن فُرض جدلاً أنها قد تتحقق فى زمان قصىّ من الأبدية ؛ فليس اليوم بد من اعتبارها حلم الأبد .

محمد توفيق الصباغ

(١) الصفحة ٤١٦ فى الجزء من كتابه المشار إليه آنفا .
(٢) الصفحة ٢١٣ فى الجزء الثانى من الكتاب عينه

(١) الصفحة ٥٢٢ من كتابه « خلاصة التاريخ العام » .
(٢) الصفحة ٤٦٦ فى الجزء الثانى من كتابه « فى مساء الفكر » .
(٣) Laraison crée lascieuce, les sentiuneus wénent l' bistoire
(٤) Etre c'est lutter, vivrecést vaincre وهى كلمة دالة تحت عنوان كتابه المسمى « الكفاح العام » .
(٥) L' Egoiswe seule base de toute Société ، والجملة عنوان كتاب له .
(٦) فى الصفحة الثامنة من كتابه المذكور فى هامش سابق .

ظهر حديثا

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

بقلم الأستاذ

دريني خشبة

يطلب من مجلة الرسالة